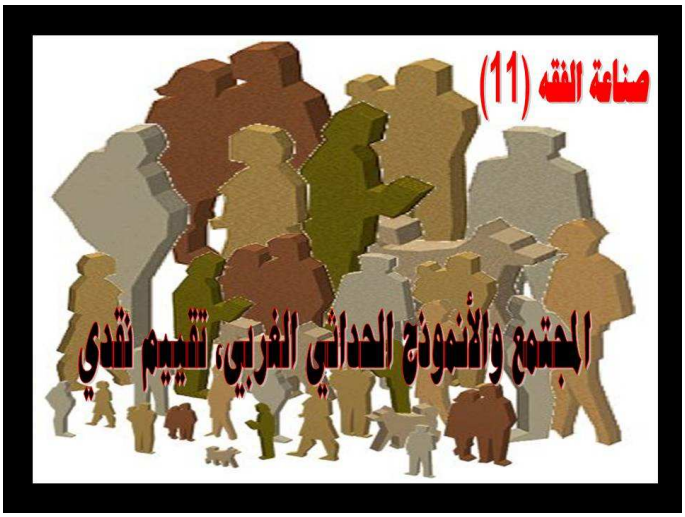

سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

صناعة الفقه (11) المجتمع والأنموذج الحداثي الغربي، تقييم نقدي

تمهيد

لم يُقَدر ل الدرس الاجتماعي الإسلامي، بالرغم من مرور أزيد من ستة قرون على نشر ابن خلدون لمقدمته الشهيرة في القرن الثامن الهجري، أن يدخل حيز الممارسة الفقهية، كمقدمة ضرورية في البحث الميداني قبل تنزيل الفقه على المجتمع، ولا أن الفقهاء، وجلهم أصبحوا مقلدة مجترين كقذى في العين، كانوا، طوال هذه الحقبة التاريخية الممتدة من القرن الثامن وإلى يوم الناس هذا، في مستوى إدراك القيمة العملية والإجرائية لهذا العلم، ليستحدثوا له باباً من أبواب تخصصهم، على ما جرت به العادة في تبني وتبيئة العلوم المستحدثة إبان صدر الإسلام وحتى العصر العباسي الأول.

ويظهر، بحسب شهادة التاريخ، وكأن هذا الفرع من المعرفة، ولد ميتاً، واحترق حتى قبل أن ينضج، على خلاف باقي العلوم الإسلامية الأخرى، بينما نجد الغربيين، وقد أعادوا اكتشافه، بعد مرور أزيد من أربعة قرون على ابن خلدون، يولونه من الاهتمام، ويبوئونه من الصدارة في التنظير والممارسة، ما فاق كل تصور!.

ولعل من تحصيل الحاصل، البحث عن الأسباب التي جعلت هذا الأمر، متعذراً في المطلق عند المسلمين وهم في طور انحطاطهم، وميسوراً ومنتجاً في الغرب وهم على أبوب نهضتهم.

وجدير بنا، ونحن نتوخى تدارك هذه الفجوة وسد ثغرتها، من أحل إقلاعة استئنافية جديدة وصلبة، تبوئ هذا الحقل من المعرفة مكانته اللائقة به، التي يجب أن يشغلها في الفقه، ك آلية من آليات تحليل الواقع وتفكيكه، بغية فهمه، ثم إعادة جمع لممه، لتنزيل النصوص عليه.

وبما أن المسلم، حيثما حل وارتحل، مطالب أولاً **بإقامة شرع الله** في **دائرة نفسه**، ثم في **دائرة أسرته**، ثم في **دائرة محيطه**، ثم في **دائرة حيه**، فحارته، فبلدته،...إلى ما لا نهاية له من الدوائر اتساعاً وشمولاً، بقدر استطاعته، إلى أن يقفل الدوائر كلها بدائرة كل الدوائر وهي **الدولة الإسلامية**، ما لم يكن ينتمي إلى أقلية ضمن أغلبية غير مسلمة، القادرة وحدها على تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة وغير منقوصة، للتطابق مع الوصف الرباني الوارد في قوله تَعَالَىٰ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠

فللدولة أسبقية وجودية، قبل إمكان تطبيق الشريعة بكل روافدها السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

ثم، هي اجبة الإقامة فوق أيّة بقعة من بقاع الأرض، على أن تتسع بعد ذلك، بقدر ما تنفتح على المخالف، بغية مشاركته واستيعابه، من غير إكراه ولا مصادرة، وليس بالضرورة ان تشمل الأرض كلها، مادام الله خلق الناس ليختلفوا، ولم يشأ أن يكونوا **أمة واحدة** بالجبر القدري القاهر، لقوله تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ هود: ١١٨ - ١١٩

ولا يخفى أن هذه الأمة المشروع، هي بمعنى ما ما أم الأمم، مادام كل فرد فرد في حد ذاته، يمكن أن يجسد أمة لوحده، بسابقة إبراهيم عليه السلام.

1) جذور قيام الحداثة في الغرب

سوف تعرض لنا، من حيث المبدأ، في هذه السياحة المفهومية والتنظيرية، التي نعتزم القيام بها، ضمن الإطار المرجعي الغربي، ثلاث إشكاليات لها تعلق أولاً ب "الحد" أو "التعريف" المتخذ، ثم ثانياً ب "المنهج" المتبع، وأخيراً ب "نظرية المعرفة" التي يتبناها كل منظر في معالجته لموضوعاته.

1.1) مشكلة التعريف في حد "الحداثة"

لمفهوم "الحداثة" كما تطور في الغرب، ترسبات جيولوجية من حيث انزياح الدلالة.

فهو قد يطلق، ويراد به شيء واحد، أو عدة أشياء في نفس الوقت.

وعادة ما يشير مفهوم "الحداثة"، إما إلى:

1) حقبة تاريخية، غير محددة التخوم والمعالم زمانياً، إن لم تكن اعتباطية بمرة، أو إلى:
2) فترة معاصرة متحركة باستمرار، مع كل ما يرتبط بها، مقارنة مع ماض تختلف عنه في شيء ما أو باعتبار ما. فكلمة "حديث" الفرنسية (*Moderne*) مثلاً، ترجع بأصولها اللاتينية إلى كلمة "موديرنوس" (*Modernus*)، كما كانت تستعمل في العهد الروماني

المعاصر للسيد المسيح ﷺ كتضاد إما مع ماض سحيق، أو أقدم، أو تقليدي، وظلت تراوغ التحديد والضبط في انزياح دلالي مستمر وإلى اليوم.

وهذا يعني أن الغرب لم يتوقف قط عن توليد "قدمائه" و"حداثييه" ومنذ ما يزيد على ألفي سنة على الأقل!، حتى أن "الحداثي" بهذا المعنى الانزياحي لم يتطابق قط مع أيّ مفهوم أو مدلول بعينه في حقبة تاريخية محددة بعينها!.

3) نوع من المجتمع بمحددات معينة: إما وصفية، أو تحليلية، أو نظرية، لها سمة الثبات، والتي يمكن مقابلتها مثالياً بطريقة تجريدية وشكلانية مع محددات مجتمعية أخرى.

والمثل الأقرب للذهن، مقارنة مجتمع "الإسكيمو" أو مجتمع "إنسان الأحراش" (*Bushman*) من السكان الأصليين الأستراليين مثلاً مع مجتمع مدني معاصر.

والكثير من الاجتماعيين الغربيين قد يجمعون بين هذه المحددات الثلاث في استخداماتهم لمفهوم "الحداثة" من منطلق إناسي (أنتروبولوجي)، حتى وهم يركزون على جانب واحد منها فقط دون الآخر.

1.2) المشكلة المنهجية المرتبطة بعلم اجتماع المعرفة في الغرب

تستعمل النظرية عادة في العلوم، إما للتفسير، أو للتوقع بالوقائع المحايثة في عالم التحقق أو التصديق.

وقد نذهل، عندما نكتشف أن هذا المطلب الأساس، أي مطلب كفاية النظرية، لم يتحقق قط في أيّة نظرية من نظريات علم الاجتماع، التي يتداولها الاجتماعيون الغربيون فيما بينهم، على كثرة المنظرين في هذا العلم، ولمدة تزيد على الأربعة قرون، منذ الكتابات الأولى للقاضي

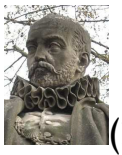

الفرنسي ميشيل دو مونتين (*Michel de Montaigne*) (1533 – 1592) في كتابه: "المحاولات" (*Les Essais*) الصادر بعد مرور قرنين على صدور "مقدمة" عبد الرحمن بن خلدون

(733 هـ/1332 م –809 هـ/ 1406 م) ، في "علم العمران البشري"، الذي يعد بحق أول مؤسس لعلم الاجتماع في مفهومه المعاصر، حتى وإن لم تظهر أول ترجمة رسمية لمقدمته سوى في سنة 1818، على ما اعتاد الغربيون المتح من المصادر الإسلامية والوثوب والنط فوقها، إغماطاً لحقوق أصحابها في السبق العلمي أو المفهومي، دون إيراد ذكر لهم بأسمائهم، أو الإشارة لأعمالهم في نصوصهم، حال ما رأيناهم ينسبون اكتشاف الدورة الدموية

الصغرى للإنجليزي ويليم هارفي (*William Harvey*) (1578 م – 1657 م) ، بينما

مكتشفها الأول هو ابن النفيس المصري (607 هـ/1213م - 687هـ/1288 م)[1] ، خصوصاً، ونحن ونعلم يقيناً أن هارفي كان قد اطلع على نص ابن النفيس، ومع ذلك لم يشر إليه قط، أو من نسبة المنهج الاستقرائي العلمي إلى الإنجليزي فرانسيس بيكون (*Francis*

Bacon) (1561 – 1626 م) ، وهو قد أخذه عن الحسن بن الهيثم (صورة متخيلة له على

[1] أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحرم القُرشي الدمشقي **الملقب** بابن النفيس **ويعرف أحياناً بالقرَشي بفتح القاف والراء نسبة إلى بلدة** (القرَش) التي كانت بقرب دمشق) .607هـ/1213م، دمشق - 687هـ/1288 م، القاهرة (هو عالم وطبيب عربي مسلم، له مساهمات كثيرة في تطور الطب، ويعد مكتشف الدورة الدموية الصغرى ويعتبر من رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن. عين رئيس أطباء مصر .[1] [2] ويعتبره كثيرون أعظم شخصية طبية في القرن السابع الهجري. {من زيكيبيديا},

ورقة مالية عراقية) [2]..إلخ. وقس على هذا الباقين ممن لم تخضع أعمالهم للتمحيص بعد.

وقد قرر مونتين في كتابه الأول في الفصل الثالث والعشرين منه أن:

"قوانين الوعي" تتولد من التقاليد، وليس كما يقال من الطبيعة. فكل فرد منا يحترم داخلياً الآراء والعادات التي تجد موافقة وتقبلاً من حوله، كما أنه لا يستطيع تجاوزها دون توبيخ ضمير أو تطبيقها دون ارتياح نفسي يغمره.

قلت: وهذا الذي ظن مونتين، أنه أول من اكتشفه ك قانون أو قاعدة عامة في علم الاجتماع، هو في الحقيقة قديم قدم الإنسانية ذاتها، على ما وصف القرآن من تـــواتره في الأمم السابقة:

﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾[3]

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[4]

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[5]

فهذه التبعية للأعراف والتقاليد ومواريث الآباء والأجداد قاعدة سلوكية عامة لدى البشر.

ومن هنا برز هذا الرابط القاهر في التقليد الذي يصعب تغييره كـــسلوك إن لـــم يكـــن متعـــذراً

---

[2] محمد بن الحسن بن الحسن بن الهيثم أبو علي البصري (354هـ/965 م - 430 هـ/1039 م)

[3] سورة يونس، الآية 78

[4] سورة الزخرف، الآية 22

[5] سورة البقر، الآية 170

بإطلاق، على ما جاء من توبيخ وتقريع لظاهرته في النص القرآني أعلاه، حيث اتهم القـــائلين والمتمسكين به كعرف، بـأنهم لا يعقلون وبالتالي لا يمكن أن يهتدوا إلى أي مسلك رشـــيد فـــي حياتهم.

2) الشقشقيات الأسطورية المؤسسة لعلم الاجتماع في الغرب

وصمت هذه الأولية ل"المجتمع" على "الفرد"، علم الاجتماع الفرنسي ببصمتها المميزة عند كل منظريه، مهما اختلفت مشاربهم المذهبية أو تشعبت.

فقد كان هذا، هو اختيار الوضـــعاني الفرنـــسي أوغست كونت (*August Comte*) (1798 – 1857) في كتابه: "تصميم الأبحاث العلمية الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع[6]" ســـنة 1822 الذي توخى فيه بناء "علم الاجتماع" على أنموذج "علم الطبيعة" بنسقها النظري، حيـــث المعرفة تتم في العالم، وتكمن وظيفة العالم في التعرف على القوانين العلمية التي تحكم ظواهر العالم والتنبؤ بصيرورتها، من أجل التحكم فيها وتحقيق المنفعة العملية منها.

وقد أخذ كونت هذه المقاربة من الاشتراكي الطوباوي الفرنـــسي سان سيمون (***Claude*** ***Henri de Rouvroy, Comte de Saint-Simon***) (1760 – 1825) الذي كـــان يـــؤمن بإمكان تنظيم المجتمع على أساس علمي بتشيئ علاقات المجتمع، أو بحسب شعاره المعلن[7]:

إبدال حكم الناس بإدارة الأشياء

[6] " *Plan de travaux scientifiques nécessaires pour réorganiser la société* »

[7] **Remplacer le gouvernement des hommes par l'administration des choses**

وكان كونت قد التقى سان سيمون سنة 1818 وتتلمذ لأفكاره وعمل أميناً لسره لمدة ستة أعوام، قبل أن ينفصل عنه ويستقل بفكره الخاص.

ويعد سان سيمون أول من وضع لفظة "الوضعية" (*Positivism*) كمفهوم، وقال بفكرة المراحل التحقيبية الثلاث، التي تتدرج من الدين، ف الميتافيزيقا، ثم العلم، وهي شقشقة شهرزادية مؤسسة سيستعيرها منه كونت ليعمل بها في مذهبه الاجتماعي.

ويمكن اعتبار اشتراكية سان سيمون الطوباوية، القنطرة الضرورية للماركسية في تبنيها للاشتراكية المادية.

وسيستثني كونت "علم النفس" من كونه "علماً" في تصنيفيته للعلوم باعتبار أن "علم الأحياء" و"علم الاجتماع" يقومان مقامه ويهتمان بموضوع بحثه، ثم لكون الفرد ليس سوى "تجريداً" في حد ذاته، في حين أن "الصنف"، وهو المجتمع، يشكل حقيقة يمكن معاينتها!.

وقد نظر كونت إلى الدين بكونه محدداً اجتماعياً ضرورياً في هيكلة مجتمعه الوضعي.

لكن بدل الاكتفاء بما هو قائم من ديانات العالم، فقد قام باختراع وتلفيق دين وضعي جديد لمجتمعه المثالي هذا، يقوم على عبادة "الإنسانية" ك إله!.

وقال كذلك بضرورة استبدال البشرية، بحسب تخريفه، للتصور الخيالي! عن الله بالتصور الوضعي للإنسانية، كدين جديد يجمع بين مختلف عبادات الإنسانية من خلال مؤسسيها وقديسيها وعظماء رجالها ونسائها وطقوسها!.

ثم حاء بعد كونت، وعلى خطاه: العنصري الفرنسي: لوسيان ليفي-بروهل (Lévi-Bruhl, Lucien.) (1857 – 1939) في ثلاثية كتبه:

أ) "الوظائف العقلية في المجتمعات السفلية!" (*Les Fonctions Mentales dans les Société Inférieures*) سنة 1910،

ب) و"العقلية البدائية!" (*La Mentalité Primitive*) سنة 1912،

ت) و"الروح البدائية!" (*L'Ame Primitive*) سنة 1927.

وشرع في تشريح عقول الأغيار المخالفين، باعتبارهم من **"المتوحشين"!** كما كان يسميهم، وقال بأن لهم عقليات **"ما قبل منطقية"!** (*Prélogique*) مختلفة عن العقلية المعاصرة له من حيث **النوع**، لا من حيث **الكم**!.

وعنده أيضاً أن "**البدائيين**" لا تصور عندهم لمعنى "**الفردية**"!، وأن تفكيرهم **لا يخضع لقانون التناقض!** وبأن الشخص عندهم يمكن أن يكون، **هو نفسه وحيوان الكنغر تقمصاً**، في آن واحد!.

قلت: وسيعارض **النفسوي الانجليزي: تشارلز ساميويل مايرس** (Charles Samuel Myers) (1873 – 1947) هذه النظرة **العنصرية الفجة والمتعالمة!**، من

منطلق "علم الاجتماع النفسي"، الذي ترفضه المدرسة الفرنسية المتأسية في منظورها بمنظـــور كونت، بقوله[8]:

إن الإنسان البدائي **لا يختلف عنا في العقل أو الجسم بأي مفهوم جذري**، *وأن الاختلافـــات إن وجدت، فهي ترجع بالأساس إلى* **البيئـة والعرف**. *وأنه لا يوجد شيء اسمه* "**العقل الاجتماعي**". *وأن أســـاس* "**علم النفس الاجتماعي**" *يكمن في واقع أن أي شخصين مرتبطين ببعضهما البعض في مجتمع ما، تختلف تجربتهم عن أولئك الذين يوجدون في عزلة عنه. ف* "**عالم الاجتماع**" *يدرس المنتجات الاجتماعيـــة والأفعـــال و* "**عالم النفس الاجتماعي**" *يدرس ذات المنتجات والأفعال من أجل* "**المدارج العقلية**" (***Mental Processes***) *الشعورية واللاشعورية القابعة تحتهما.*

وهو أقرب إلى الحقيقة العلمية من التخرص السابق.

وسيتلون **علم النفس الاجتماعي** نفسه بنكهات التيارات الفلسفية السائدة.

- فعندما ظهـــرت تقليعـــة وجوديـــة **مـارتن هايدغر** (***Martin Heidegger***) (1889 - 1976) الفلسفية مثلاً، انبثق عنها متأثرا بها تخصص حمـــل اســـم "**التحليل النفسي الوجودي!!!!**"،

- ومع تطور **علم اللغة** على يـــد السويـــسري **دو سوسير** (***Ferdinand de Saussure***) (1857 – 1913) ك **هيكل ونظم**، ستظهر **بنيوية كلود ليفي ستراوس** (***Claude Lévi-***

---

[8] أنظـــر التقريـــر الـــصادر عـــن "الكـــونغريس الـــدولي لعلـــوم الإناســـة والـــسّلالة" (Congrès International des Sciences Anthropologiques et Ethnologiques) لسنة 1934. وانظر مقالاته في:

Myers C. S., « Contributions to Egyptian Anthropometry I --V: The Comparative Anthropometry of Most Ancient and Modem Inhabitants », *JRAI*, 35,1905, p. 80-102.
Myers, C.S. (1904). A study of rhythm in primitive peoples. *British Journal of Psychology*, 1, p. 397.

(*Strauss* (1908 –) وسينبثق عن الأخيرة **فرع معرفي محايث** حمل اسم "**التحليل النفسي البنيوي!!!!**"، و"**التحليل النفسي اللغوي!!!**" كما عنـــد الفرنـــسي **جاك لاكان** (*Jacques-*

Marie Émile Lacan) (1901 – 1981).

وكلها جعل لها أصحابها **إسقاطات** على **المجتمع** بتأويلات هي أشبه بـــالتخريف الحـــر منها بمسمى العلم في أدنى متطلباته!.

وقد مر بنا أن **أوغست كونت** لا يعترف بشيء اسمه "**علم النفس**"!، ولا **بأولية الفرد** فـــي المجتمع، حيث يظل عنده "**مجرداً وجودياً**" لا يتعدى مستوى "**التجريد**"!.

وهذا يعني أن الـــرجلين، **لن يستطيعا التخاطب بلغة واحدة** ولا **التواصل في المطلق!.**

قلـت: وليس هذا بغريب ولا شاذ، على جـــانبي **القناة الإنجليزية**، كمـــا يـــسميها الإنجليز، و"**المانش**"، كما يسميها الفرنسيون!، حيث اختلف الشعبان في كل شـــيء للمنافـــسة التاريخية بينهما.

ومثل **الحاخام اليهودي**: **إميل دوركهايم** (*Emil Durkheim*) (1858 – 1917)، الرجل الثالث ضمن كوكبة المنظرين الفرنسيين في "علم الاجتماع". وسيؤلف سنتين بعـــد **لفي بروهل** كتاب: "**أصول الحياة الدينية**" سنة 1912 ينقض على **بروهل** فيها كل أفكاره وتصوراته!.

وسيجمع دوركهايم كيهودي، بين متطلبات دينه اليهودي، ومتطلبات الساحة الثقافية التي يعيش في كنفها، سالكاً ذات الطريق الذي كان قد سلكه بعض يهود الشتات الذين مروا قبله من مثل ظرفيته، كرجل مخضرم ذي ثقافتين أو بعدين متنافرين:

أ) البعد الموحد اليهودي،

ب) والبعد العلماني الملحد الفرنسي، حال ما عهدنا عند الفيلسوف اليهودي فيلون

الإسكندري (Philo of Alexandria) (20 ق.م – 50 م) عندما ألف ولفق ما بين التراثية اليهودية والفكر الوثني الفلسفي الهلّيني[9]، وأنتج خطاباً فلسفياً مهجناً محايثاً!.

أما في حال دوركهايم، فتلفيقه سيجمع ما بين الموروث اليهودي و فلسفة هيغل (1770 – 1831) التي نسخت الفلسفة الإغريقية وأعادت تأويل مقولاتها بقراءة ألمانية!، وهذا ظاهر من نصه الذي يرد فيه على بروهل.

وسيظل الخلاف النظري في علم هش ك "علم الاجتماع" الغربي، سيد الساحة والموقف، وبالتالي أهوائي (من الهوى) إن لم يكن متهافتا في الكثير من أحكامه، التي ينزلها أصحابها تنزيل الضرورة!، بينما لا يشك ذو مسكة من عقل أنها أسطرة محضة!، أو استعارات لغوية مجازية، عرضة لـ الاستغلال العقدي (الإيديولوجي) بامتياز، كما سنجد في تلك التحقيبات النمطية الخرافية، من شاكلة التحقيبات الثلاث عند أوغوست كونت، التي كان قد أخذها عن

[9] أنظر كتابنا: "التأويلية الإسلامية في ماضيها وحاضرها: آفاق المستقبل".

اليعقوبي (Jacobin) والثـــوري الفرنـــسي سان سيمون (1760 – 1825)، ومفادهـــا أن: الإنسانية مرت أثناء تطورها التاريخي بثلاث مراحل وهي:

(1) المرحلة اللاهوتية،

(2) ثم المرحلة الميتافيزيقية،

(3) ثم المرحلة الوضعية.

قلت: ويعد هذا المنحى الميتافيزيقي الأسطوري في التأسيس، أول نقـــائض "شبه العلم" هذا، الذي أرادوه وضعياً، بمجرد انتقالهم من ميتافيزيقا إلى أخـــرى أو تعويـــضهم إياها بمثيلها أو نقيضها!.

وهو نمط من التفكير متأصل في الغرب ويمتد بجذوره التاريخيـــة إلـــى الأب المؤســـس: الفيلسوف الإغريقي أفلاطون (*Πλάτων*) (428 ق.م – 348 ق.م) الذي حـــاول محاربـــة الأسطورة في الشعر، باختلاق أساطير من عنده![10].

فلن نعجب إذن أو نصاب بالدهشة، إذا ما قرأنا للإناسي (الأنتروبولوجي) الأحيائي (البيولوجي) فيليب طوبياس (*Phillip Tobias*) وهو يفسر بأسطورة خرافية مشروطة بشروط تعجيزية، لا تقل خرافة، كيف تطور الذكاء التقني بقوله[11]:

---

[10] أنظر كتابنا: ""التأويلية الإسلامية في ماضيها وحاضرها" آفاق المستقبل".

[11] أنظر: مايكل كاريذرس: "لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟: الثقافات البشرية: نشأتها وتنوعها"، ص. 85، ترجمة شوقي جلال عن الأصـــل الإنجليـــزي: (Michael Carrithers, 1992: "Why Humans Have Culturs?, Oxford University Press.)، سلسلة عالم المعرفة، العدد 229 رمـــضان 1418 هـــ/ينـــاير 1998م، الكويت.

إن عاجلا أم آجلا! حدث أن البعض من بين القطاعات السكانية العديدة المنتشرة في أنحاء إفريقيا من **الإنسان الأول!!** المعروف باسم **أوسترالوبيثيسين** (**Australopithecines**)[12] أن اكتسب **القدرة العقلية!!** على تجاوز **أعلى حدود القدرة التنفيذية!!** {...} وإن عاجلا أم آجلا! اكتسب بعضهم الكم!! و/أو النوع!! **اللازمين للمخ ليكون قادراً على استخدام أداة لصنع أداة أخرى!!**. وربما!! جاء هذا البدء كحدث مفاجئ قصير! كأنه ومضة برق! على الساحة. ولكن إذا ما كان هذا الحدث قد هيأ ميزة انتخابية!!! كافية، فلا بد أن القدرة الخاصة بهذه الميزة قد انتشرت!! {..} وهاهنا حدث إنجاز تاريخي!! كبير وجديد. صناعة الأدوات الحجرية.{...} أصبح مجديا إذ تهيأت إمكانات جديدة بغير حدود في الواقع!!.

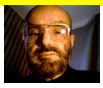

قلت:

قارن هذا التخرص المتعالم بما ورد في القرآن الكريم بالنسبة لابني آدم، أول البشر في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّۘ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ ﴾ المائدة: ٢٧ - ٣١

فطوبيا بنى كل هذا الحبك الأسطوري، إما على شظية عظم، أو سن فك، أو موطئ قدم في صلصال يابس، أو بقايا جمجمة، حيث يلعب خيال المنظر الدور الأكبر في ملء الفجوات والبرازخ، متى أعوزته المعطيات الملموسة!

---

12 نوع من القردة المعروف أساساً من حفريات البليستوسين (Pleistocene) وهو العصر الحديث الأقرب (أقل من مليون سنة في القدم من وعصرنا الحاضر) من الحقب الرابع في الزمن الجيولوجي، ووجدت بقاياه في جنوب شرق إفريقيا.

وهي ظاهرة تأسيسية عامة في كل العلوم الغربية النظرية ضمن أنموذجهم الإرشادي العام، بل وتمثل إحدى "ثوابت" و"ركائز" هذا الفكر كبعد "ميتافيزيقي" يحاول القيام بما يقوم به "الإخبار القرآني" مثلاً، في مجال المتعالي كمعرفة غيبية تاريخية إعجازية تصديقية.

نجدها في علم الكونيات (Cosmology)، والألسنيات (Linguistics)، والإناسة (anthropology)،..إلخ،

و هي سمة بارزة عند الإناسيين الداروينيين خاصة حال طوبياس هنا، عندما تعوزهم المعطيات الميدانية، أو الدليل المادي الملموس، لينطلق خيالهم الجياش في توليد خرافات لا خطم لها ولا أزمة يحاولون بها تفسير تطور الإنسان من القرد الزاحف على اطرافه الأربع، الذي يعيش فوق الشجر، ليتطور إلى إنسان منتصب القامة على قدمين!

ونجدها عينها، وإن اختلف الشكل، عند أصحاب علم الوراثة الحيوية الذين ينطلقون من إحدى خواص علم الوراثة أو المجين البشري عامة، لينقضوا تخريف الإناسيين الداروينيين من أساسه، لكن، لينطلقوا بدورهم من فرضيات مثل وجود "ساعة حيوية" (*Horloge Moléculaire*) في الإنسان، ثم ملاحظة أن الصبغي الذكري (Y)، وهو من خواص الذكورية فيه ولا تحمله الأنثى، ثم افتراض حصول طفرات فجائية عشوائية (*Mutations Aléatoire*) في المجين البشري (Le Génome Humain) 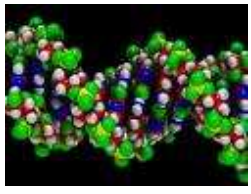 **في حدود 2 % أو 4 % في كل مليون سنة للقول بأن آدم، أب الإنسانية عليه السلام ظهر على وجه الأرض منذ 150,000 سنة!.**

ثم ينطلقون في الجمع بين هذه الفرضية ونتيجتها ليكتبوا سيناريوهات مفصلة! لانتشار ذريته من إفريقيا إلى باقي قارات المعمورة (الصورة) ، محقبين لذلك عبر العصور بخيال رحب! يفوق بكثير ما ابتدعة صاحب ألف ليلة وليلة!.[13]

قلت:

ولا يجب أن تغيب عن بال القارئ النبيه هذه الخلفية اللاعلمية بالأساس، حيث يظهر بجلاء، أن المنظور الإرشادي الغربي (Paradigm) هو نقيض من هذه الحيثية ل "الأنوذج المنظوري الإرشادي الإسلامي العام"، المطالب دوماً بالدليل والبرهان بدل الرجم بالغيب، كما في قوله تعَـالَىٰ:

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ ﴾ الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩

ولو لم يوجد سوى هذا البعد المؤسسي الأسطوري، كمأخذ لا عقلاني، في مثل هذا الأنموذج، كأحد أهم أعمدة التصور والتفكير والتنظير والتأسيس، لكان حقيقاً به أن يطرح ويلقى

[13] أنظر مثلا عرضاً لهذا التخريف على المستوى الشعبي المتعالم، من خلال عنوان لمثل هذا السيناريو ظهر في مجلة: "العلم والحياة" الفرنسية تحت عنوان لافت: "لقد عثر على آدم أب الإنسانية: (Science & Vie, N° 967, Avril 1998, p. 88.)

به إلى مزبلة التاريخ، ويخرج من أي اعتبار علمي، ولكان في حد ذاته مبرراً كافياً وحافزاً قوياً في الدعوة إلى قيام علوم تصحيحية وتقويمية بديلة في الفهم والتكشف والتسخير، أكثر صلابة بنيوياً من حيث التأسيس، وأقرب إلى التصديق الواقعي نظرياً، بغية تحرير العقل البشري من مثل هذه التخريفات الحرة وهذه الأسطرة الموغلة في الخيال المتقعر!.

وكان كونت يعتقد بأن "علم الاجتماع": علم مرتبط بحياة الإنسانية، ومؤسس على شروط الوجود الإنساني. والإنسانية من وجهة نظره: "كائن حي" بقوانينه الخاصة في النشأة والنمو، وبأن "الفرد" بداخل المجتمع ما هو سوى تجريد لا معنى له خارج هذا الكائن الذي يتحكم جبرياً في حياته وأفكاره!.

ومن هنا، ف "علم الاجتماع" عنده، علم "كلي" وليس علماً يُدرس كجزر تخصصية معزولة عن بعضها البعض.

قلت:

وسيلازم هذا "المنظور الكلي" ل علم الاجتماع المدرسة الاجتماعية الفرنسية لفترة طويلة كنكهة خاصة بها.

وكان أيضاً يرى، كنتيجة مباشرة لهذا المنظور الشمولي، أن شهادة الماجستير في "علم الاجتماع" يجب أن تشتمل على دروس في علوم: الرياضيات، والفلك، والطبيعيات، والكيمياء، والأحياء.

وقد مثلت هذا النزعة الأسطورية في"علم الاجتماع" بحق، نكوصاً وردة، عما أصله عبد الرحمن بن خلدون، الذي حاول تطهير هذا العلم، الذي ابتكره ابتكاراً، من الخرافة والأسطرة، في كتابه: "المقدمة" ، حتى أمكن القول بأن ما يميز بين "علم الاجتماع" من منظور إسلامي ومن منظور غربي، هو خلو الأول من الأسطرة التأسيسية أو التفسيرية، واعتماده المبادئ القرآنية الثابتة القطعية كمسلمات، أو الظنية كفروض عمل، بينما الثاني وليد الأسطرة كخرافة مؤسسة ومبني على "التجريد" كبناء نظري محض، يعتمد التصور الذهني القبلي، القائم على الفروض التخرصية في النشأة والتكوين، لكن من بنات أفكار المنظر نفسه.

ومن هنا يتبين بوضوح:

أن التنظير الاجتماعي في المدرسة الفرنسية تنظير مثالي خارج الواقع الذي تحاول وصفه.

قلت:

ولطالما ادعيت ل "علم الاجتماع" العلموية أو الموضوعية إيديولوجياً، ومنذ أوغوست كونت نفسه في كتابه: "تصميم الأبحاث العلمية! الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع!!" سنة 1822، الذي توخى فيه أن يجعل من "علم الاجتماع" علماً مبنياً على أسس نموذج "العلوم الطبيعية"، كما استقرت في "الأنموذج الإرشادي" لإسحاق نيوتن (*Isaac Newton*) (1642 – 1727)

الذي أوضحه في كتابه "المبادئ" (*Principia*) 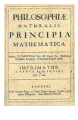 الصادر سنة 1687 والذي

سيصفه الشاعر الإنجليزي: ألكساندر بوب (*Alexander Pope*) (1744 – 1688) ببيتين شهيرين[14]:

الطبيعة وقوانين الطبيعة ظلت حبيسة الليل
قال الله، ليكن نيوتن! وصار الكل نـــوراً!

وسيعمم هذا "الأنموذج الفيزيائي" على كل العلوم!.

وقد حاول المنظرون في "علم الاجتماع" بالذات، مقاربـــة "الأنموذج الإرشادي النيوتني" (*Newtonian Paradigm*) من خلال البحث عن "العلاقات المتواترة" بين مختلـــف الظواهر الاجتماعية واعتبار تلك العلاقات "قوانين للمجتمع" حال قوانين الجاذبية الأرضية عند نيوتن!.

انتهى وتليه الحلقة الثانية

جدلية الدجاجة/البيضة: هل الفرد أسبق في الوجود أم المجتمع؟

---

14 Nature, and Nature's Laws lay hid in Night
God said, Let Newton be! And All was Light